المحاضرة الثانية عشر:

علم الطبيعة البشرية عند هيوم:

أما **ديفيد هيوم** (1711-1776) فأصبحت الفلسفة عنده نوعاً من البحث النقدي، هي نقد للقيم الأخلاقية، والسياسية، والمعرفية، والفنية، والأدبية، ونقد للفهم في حدّ ذاته. وبفضل هذه المهمة النقدية أراد أن يستبدل الميتافيزيقا الأنطولوجية القديمة التي تدّعي الوصول إلى كنه وماهيات الأشياء والوصول للعلل الأولى، بعلم جديد نقدي، مهمته أن يوقفنا على ما تكون عليه الأشياء عندنا وفي أنفسنا، لا كما هي في ذاتها، أي أراد في الأخير أن يفحص طبيعة العقل البشري، ويكتشف إمكانيته التي يستطيع بها معرفة الأشياء. ويتم هذا النقد من خلال مبادئ ومعايير حددها وطبقها بصرامة على قضايا الفلسفة. فما هي هذه المبادئ الإبستيمولوجية؟ وما النتائج التي انتهى إليها؟ لكن قبل ذلك نشير إلى محاولة هيوم تأسيس علم الإنسان بتطبيق منهج العلوم الطبيعية.

علم الطبيعة البشرية عند هيوم:

1- تعتبر محاولة الفيلسوف الإنجليزي ديفيد هيوم من أولى المحاولات لتأسيس علم للطبيعة البشرية، أو علم الإنسان في المنتصف الأول للقرن الثامن عشر. ومنطلق هذا التأسيس يعود إلى تصوره للعلوم الأخلاقية، أو ما يتعارف عليها عادة بالفلسفة في اصطلاح الفلاسفة الإنجليز في ذلك الوقت (149)، فهي بنظره عبارة عن مناقشات عقيمة جدلية لا نهاية لها، خالية من أي معنى في أغلب قضاياها « بدأت، يقول هيوم، أعتبر بجد كيف ينبغي الشروع في مباحثي الفلسفية، ووجدت أن الفلسفة الأخلاقية المنقولة إلينا منذ القديم .. قائمة على مجرد الافتراض تماماً،

[149] -Hume (David) ,An Enquiry concerning Human Understanding , The open court publishing company, chicago.Illinois.1958. Sect 1., op.cit., p:1.

ومعتمدة أكثر على التلفيق منها على التجربة.. بدون أي اعتبار للطبيعة البشرية»(150). ثمّ هي علوم لا يحصل الإنسان منها على نتائج موضوعية تكون محل اتفاق الناس عليها مثلما هو حاصل في العلوم الأخرى، أي علوم المادة، ويعود ذلك إلى سببين رئيسين: أحدهما يتعلق بالموضوع، والآخر يتعلق بالمنهج. أما ما يتعلق بالموضوع فيتمثل في قلّة التحديد لمجال هذه العلوم إذ غالباً ما يتجاوز هذا المجال حدود القدرات البشرية أو حدود الفهم البشري، في حين أنّ ما يخص المنهج فيتعلق بعدم الاهتداء إلى منهج ملائم لها.

2- يبحث الفيلسوف في هذا التأسيس في مفهوم الطبيعة البشرية وكيف وجد أنّ جميع العلوم تعود في الأخير إلى هذا الأساس« من الواضح أن جميع العلوم لها علاقة بالطبيعة البشرية»(151) و« جميع العلوم تقريباً تفهم في علم الطبيعة البشرية وتعتمد عليه.» لكن ما المنهج المناسب لدراسة هذا العلم الخاص بالطبيعة البشرية؟

3- يقول هيوم:«.. ولمّا كان علم الإنسان هو الأساس الوحيد الصلب لبقية العلوم الأخرى، فإنه كذلك لابد أن يكون الأساس الوحيد الصلب الذي نستطيع أن نقيم عليه علم الإنسان هو الملاحظة والتجربة»(152) المنهج باختصار إذن، يجب أن يكون استقرائياً لا استنباطياً، وحيث التجارب لهذا النوع كانت مترابطة ومقارنة بحكمة، فإننا نأمل أن نؤسس عليها علماً لن يكون أقلّ قيمة من حيث اليقين، وسيكون أعلى شأناً وفائدة من أي فهم بشري آخر. وبالنسبة لـ"هيوم"، المنهج التجريبي والسيكولوجي كلاهما ملائم للتطبيق على جميع الأسئلة المتعلقة بالحقيقة أو وقائع التجربة. والعنوان الفرعي لـ"الرسالة في الطبيعة البشرية" يعبر بوضوح عن هذا المنحى، إذ

---

150 - Burton´s life of Hume. In Henry Calder wood.(ed) David Hume. Famous Scots Series.,p:34..

151 - " ***T is evident, that all the sciences have a relation.. to human nature''***.Hume (David) ,A Treatise of Human Nature., Introduction. Op.cit p : xix.

152 -Hume (David) ,A Treatise of Human Nature,. A.Selby- Bigge,M.A Oxford. At the clarendon press Introduction. p : xix.

يعتبره بمثابة محاولة تقديم المنهج التجريبي للاستدلال في الموضوعات الأخلاقية، وبهذا يريد "هيوم" أن يستعير منهج العلوم الطبيعية لتطبيقه على العلوم الأخلاقية، أو بالأحرى يقصد "هيوم" توسيع مناهج العلم النيوتوني إلى أبعد حد يمكن إلى الطبيعة البشرية ذاتها. يقول هيوم «.. فلو أننا اتخذنا الاحتياطات اللازمة وطبقنا على العلوم الأخرى المنهج الذي استخدمه "نيوتن" في الفلسفة الطبيعية، أفلا نستطيع هنا أن نصل إلى أوثق النتائج وأنفعها للإنسانية؟!» [153]. وهذا يعني إنه ينبغي البدء بملاحظة محكمة لعمليات الإنسان السيكولوجية ولسلوكه الأخلاقي، ومحاولة التحقق من أسبابها ونتائجها، و تفسير مبادئ الطبيعة البشرية يستلزم اختبار الذهن لاكتشاف ينابيعه ومبادئه الخفية. وعلى الرغم من أنّ هذه المبادئ قد تكون عميقة جداً، إلا أن المنهج الجديد الذي أراده وهو المنهج الذي حاول استعارته من العلماء في تطبيقاتهم له في علوم المادة على هذا العلم الجديد المتعلق بالطبيعة البشرية برأيه كفيل باكتشاف ذلك.

4- يعترف بصعوبة تحقيق هذه الآمال في تأسيس علم للطبيعة البشرية، و يعترف بصعوبة تطبيق المنهج التجريبي في هذا المجال، لكن رغم ذلك فهو يلّح على استخدامه ولو لم يكن بنفس الاعتبار في علوم الطبيعة « لكننا في الواقع، يقول "هيوم"، لا نستطيع أن نقوم بالتجارب في هذا المجال بدقة التي نستعملها في مجال العلوم الطبيعية كالكيمياء مثلاً، نملك محتوى المعطيات كما هو معطى من الاستبطان، وبملاحظة الحياة الإنسانية والسلوك. لكن في كل الأحوال يجب أن نبدأ بمعطيات تجريبية، وليس بحدس مزعوم لماهية العقل الإنساني».

[153] - نقلاً عن المرجع السابق.،ص: 116.

المحاضرة الثالثة عشر: هيوم(2)

من المبادئ الإبستيمولوجية إلى النتائج الشكّية.

في كتابه المبكر" الرسالة في الطبيعة البشريةً"، يقدم "هيوم" الأسس المعرفية و الإبستيمولوجية لميتافيزيقاه، كما عرضها بصورة مبسطة، برأيه، في "المقالات الفلسفية" " ***Philosophical Essays***، أو كتابه الذي يسميه لاحقاً "مبحث في الفهم البشري"*. في القسم الأول من كتاب الطبيعة البشرية، الجزء الخاص منه بالفهم يقوم "هيوم" بتحليل مختلف أنواع هذه الأحداث العقلية ويقدّم الأساس القاعدي الأول لنظامه الفلسفي هناك والمتمثل في: « أن جميع أفكارنا مشتقة من انطباعات حسية سابقة عنها»، أما في الجزء الثالث من نفس الكتاب فيقدم الأساس الثاني المتمثل في "مبدأ السببية"(154). في حين تظهر هذه الأسس على التوالي في كتاب "مبحث في الفهم البشري" مرتبة في القسم الثاني والقسم السابع على التوالي، وأهم مبادئه الايبستيمولوجية التي تؤسس علم الطبيعة البشرية هي:

1- الانطباعات مصدر الأفكار:

يرى "هيوم" أن هذا استعمال لفظ الفكرة لعمليات العقل الواعية غير ملائم، ليقترح لها استعمالاً آخر ويعطي لها لفظاً عاماً وهو الإدراكات (***Perceptions***)، والتي يشير به إلى كل حالات الوعي(155). ثمّ يذهب إلى أنّ العقل مجرد كومة من الإدراكات المختلفة والمتحدة معاً بواسطة بعض العلاقات المفترضة. لكن ما المقصود بالإدراكات؟ «يقصد بها إدراك أي شيء

* في رسالة رفض فيها هيوم عهده غير الناضج الذي كتب فيه الرسالة، كتبها لـ"جيلبارت إليوت" مؤرخة في 1751. يقول فيها: اعتقد أن المقالات الفلسفية(بحث في الفهم البشري)، الذي ظهر سنة 1748. يحتوي على كل شيء له علاقة بالفهم والذي تلتقي به في الرسالة. وأقدم لك نصيحة بعدم قراءة هذه الأخيرة، أي الرسالة. - Fieser (James), David Hume, Metaphysical and Epistemological theories, p:6.

154 - انظر بالتفصيل ما كتبه الفيلسوف .Colkins.M.W,The persistent problems of Philosophy,op.cit,PP:150-170.

155 - Professor Huxley. ,Hume ,London ,Macmillan and Co .1881.,p:-63.

يكـون حاضـراً للـذهن، إمّـا عنـدما نسـتعمل حواسـنا، أو نشـتغل بانفعالاتنـا، أو نمـارس التفكيـر والتأمل»(156).

عنـدما حلّـل "هيـوم" ذلـك وجـد أنّ العقـل هـو مجـرد إدراكـات متتابعـة، و هـي تنحـلّ إلـى الانطباعات والأفكار. يقول "هيوم":« كل إدراكات العقل البشري تنحل إلى نوعين متميزين، والذي سأطلق عليهما لفظي انطباعات وأفكار»(157).

تعـود المعرفـة البشـرية إذن، عنـد "هيـوم"، إلـى هـذه الإدراكـات، التـي تنحـلّ بـدورها إلـى الانطباعـات والأفكـار اللـذان يختلفـان مـن حيـث درجـة القـوة والحيويـة وحتـى الأسـبقية.. أمّـا لفـظ الانطبـاع فيشـير إلـى كـل مـا هـو أكثـر حيويـة فـي إدراكاتنـا، حـين نسـمع، ونـرى، ونلمـس، ونحـب، ونكـره، ونرغـب، ونريـد الـخ.. وتحـت لفـظ الانطبـاع أفهـم بهـا، يقـول "هيـوم"، كـل إحساسـاتنا، وانفعالاتنـا، وعواطفنـا كمـا يكـون ظهورهـا لأول مـرة فـي الـنفس. وهنـاك انطباعـات الإحسـاس وانطباعات التأمل. أمّا الأفكار « فأقصد بها، يقول "هيوم"، الصور الخافتة لهذه الانطباعات في التفكير والاستدلال»(158). أمّا فيما يخص الإشكال الهام في فلسفة "هيوم" فيتعلّق بالسؤال الآتي: هل الانطباعات تشتق من الأفكار أم العكس؟ وأيّهما مصدر للآخر؟ للإجابة عن هذا التساؤل يختبر "هيوم" الأسبقية في الظهور.

فمن الواضح أن الانطباعات تسبق الأفكار « الطفل لا يمكن أن تكون لديه فكرة عن ناطحة السـحاب مـثلاً أو حلـوى معينـة مـا لـم يكـن لديـه انطبـاع عـن ذلـك، ولا يمكـن أن تحـدث لديـه

156 -Hume (David) .,An Abstract of A treatise of H.N., in Yalden-Thomson,D.C,(ed), Hume theory of Knowledge., Thomas Nelson and Sons LTD .1951.,p:249.

157 - «***All the perceptions of the mind Hume resolve themselves into two distinct kinds, which I shall call impressions and ideas***» David ,Hume (David), A Treatise concerning Human Nature,. BK .1.,Pt.1., § 1., p: 1

158 -Hume (David), A Treatise concerning Human Nature, A.Selby- Bigge,M.A Oxford. At the clarendon press. .BK :.1.,Pt.1., §1., op.cit .p:1.

الانطباعات بواسطة الأفكار»(159) ثمّ يقول : « كل أفكارنا البسيطة في أول ظهورها هي مشتقة من انطباعات بسيطة[..] والاقتران الثابت لإدراكاتنا المتشابهة هو دليل مقنع على أن أحدهما علّة الآخر.. »(160). ويخلص إلى تقرير أن أسبقية الانطباعات على الأفكار هو« أول مبدأ من مبادئ الطبيعة البشرية »(161). يؤكد "هيوم على أن لكل فكرة بسيطة انطباعاً بسيطاً تماثله، ولكل انطباع بسيط فكرة بسيطة تلازمه. وتكمن أهمية هذا المبدأ الأول في الطبيعة البشرية، أي أسبقية الانطباعات على الأفكار عند "هيوم"، من اختبار جميع القضايا الفلسفية

2- مبدأ العلّية:

تعتبر السببية، بدون شك، الجزء الأهم والأكثر أصالة في نظام "هيوم" الفلسفي، وكأن نظريته الفلسفية تتمحور حول مبدأ السبب والنتيجة. فهي بمثابة الأساس الذي يعتمد عليه الإنسان في الوجود الحقيقي واكتشاف العلاقات بين الأشياء خارج التجربة التي نملكها، وتعطينا معرفة جديدة بقضايا الواقع، إذ أنّنا ننتقل من شيء إلى معرفة شيء آخر عن طريق هذا المبدأ. وباعتقاد البعض أن مشكلة السببية لم تناقش بصورة جدية منذ "أرسطو" إلى الوقت الحالي سوى مع "هيوم" لأنه درس السببية بتمعن كما مثلت تلك المناقشة جزءً ثابتاً ذا أهمية في فلسفته، وقد اهتم أساساً بعلاقة السبب والنتيجة (162). وفي عبارة مشهورة يقسم "هيوم" كل موضوعات المعرفة أو موضوعات الفهم البشري إلى قسمين رئيسين هما:علاقات الأفكار« ***Relation of Ideas*** » ووقائع التجربة « ***Matters of fact*** »(163)، أما علاقات الأفكار فهي حقائق نكتشفها بواسطة

159 - Copleston. F, A History of Philosophy,Op.cit, P:70.
160 -.Hume (David), A Treatise concerning Human Nature., BK .1., Pt.1., §:1., op.cit., p:5.
161 - Ibid .1, Pt.1., § 1., p:7.
162 - Calkins.M.W,The, The persistent problems of Philosophy, op.cit, PP: 153.
163 -«***All the object of human reason or enquiry may naturally be divided into two kinds, to wit, Relation of ideas, and Matters of fact***». An Enquiry Concerning Human Understanding, § ÍV. Part I. Op.cit.,p:24.

الحدس أو البرهان، كما أنها تعبر عن العلاقات الداخلية بين المفهومات، ويقدم "هيوم" المسائل الرياضية كمثال على ذلك، وهي واضحة بذاتها ولا تحتاج في صدقها إلى الأشياء الواقعية، كما أن نقيضها مستحيل لأنه ينطوي على تناقض؛ في حين أن وقائع التجربة ليست واضحة بذاتها ونقيضها ممكن لأنه لا ينطوي على تناقض، أما صدقها فيعتمد على استقصاء الواقع. ويبدو هذا التقسيم أقرب بكثير إلى تقسيم "ليبنتز" الشهير القائم على تقسيم القضايا إلى حقائق الواقع وهي الحقائق الضرورية ونقيضها محال، وحقائق الواقع الاحتمالية ونقيضها ممكن، وشبيه إلى تقسيم "كانط" اللاحق للقضايا التحليلية والتركيبية مع الاختلاف الكبير بينهما(164). "هيوم" يردّ مبدأ السببية إلى النوع الثاني من موضوعات العقل البشري، أي إلى علاقات الواقع، وكل استدلال عن قضايا الواقع يستند إلى هذا المبدأ . يقول "هيوم": « كل البراهين التي تتعلق بالوجود تعتمد على علاقة السبب والنتيجة، وإدراكنا لهذه العلاقة أي علاقة (السببية) تفهم من التجربة»(165). والمعيار الذي يقدمه "هيوم" دائماً في اختبار مثل هذه المبادئ هو: من أي مصدر يُشتق هذا المبدأ؟ وبعبارة أكثر تداولاً في اختبار القضايا الفلسفية عند "هيوم": ما الانطباع أو الانطباعات التي تستمد منها فكرة السببية؟، و إذا لم يكن هناك انطباع قد استمدت منه فكيف حصلنا عليها؟ في المقام الأول لا توجد أي خاصية مشتركة لتلك الأشياء التي نسميها "أسباباً" يمكن أن تكون جذراً لفكرة السببية، كما لا نستطيع أن نكتشف أي خاصية مشتركة يمكن أن تكون بينها ككل. « إن فكرة السببية إذن يجب أن تكون مشتقة من علاقة ما بين الموضوعات، وتلك العلاقة هي التي نحاول أن نبحثها الآن»(166)

---

164 - كوتنغهام (جون)، العقلانية فلسفة متجددة، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، (دار الإنماء الحضاري – حلب ط1 . 1997). ص ص:90-91.

165 -Hume (David), An Abstract of A Human Nature,.op.cit. p:251- An Enquiry Concerning H. U, § Ⅳ. Part II.p:33.

166 -Hume (David), A Treatise concerning Human Nature,.BK .1.,Pt.3., §:2.op.cit. p: 75.

يبحث "هيوم" العلاقة الأولى وهي علاقة التجاور***(contiguity)*** ، يذكر "هيوم" أنه مهما كانت الموضوعات التي نعتبرها أسباباً أو نتائج فهي متجاورة [167]. لكن هذا لا يعني أن الأشياء التي نعتبر أسباباً ونتائج هي دائماً مباشرة في التجاور، ولذلك قد تكون هناك سلسلة من الأسباب بين الموضوع (أ) الذي يمكن أن نسميه سبباً والموضوع (هـ) الذي نعده نتيجة. لكن قد نجد الموضوع (أ) متجاوراً مع (ب)، و(ب) مع (ج)، وهكذا، على الرغم من أن (أ) ليست متجاورة بصورة مباشرة مع(هـ).. "هيوم" لا يورط نفسه في الجزء الثالث من الرسالة على القول بأن علاقة التجاور ضرورية في فكرة السببية(168). فالموضوعات الأخلاقية على الرغم من أنها تكون في علاقات سببية مع بعضها إلا أنّ عنصر التجاور المكاني غير ممكن ، ولذلك لا يرى "هيوم" التجاور المكاني عنصراً أساسياً في العلاقة السببية.

أما العلاقة الثانية من السببية فهي الأسبقية الزمنية ***(Temporal priority)*** أو التعاقب ***(Succession)***، فالسبب يجب أن يكون سابقاً زمنياً على النتيجة. وهذا ما تثبته المشاهدة العامة، لكن هذه العلاقة لا تثبت بحال علاقة السببية. « فقد يكون جسم متجاوراً مع الآخر ومتقدماً عليه في الزمن لكن مع ذلك فلا يعتبر سبباً ما لم تقم بينهما علاقة ارتباط ضرورية، بحيث أنه إذا وجد أحدهما وجد الآخر، وإذا تغيب أحدهما تغيب الآخر بدون تخلف»(169)

العلاقة الأهم، إذن، تتمثل في الضرورة أو ما تعرف بالارتباط الضروري بين السبب والنتيجة (***Necessary connection***)[170]، والمقصود بهذه العلاقة وجود قوة . حسب المثال الذي قدمه "هيوم" . في "كرة البيليارد" الأولى التي تصدم الكرة الثانية وتجبرها على الحركة، أي حركة الكرة

---

167 - loc.cit.
168 - Copleston. F, A History of Philosophy,V5. part II. op.cit, P:83.
169 -Hume (David), A Treatise concerning Human Nature,.BK .1.,Pt.3., §:2. pp:75-76.
170 -Hume (David), A Treatise concerning Human Nature, Ibid., BK .1.,Pt.3., §:2. p:77.

الثانية تتبع بالضرورة تلك الحركة الموجودة في الكرة الأولى، ومن هنا يظهر أن علاقة السببية تملك خاصيتين أساسيتين: أولاً أنها ارتباط ضروري بين السبب السابق والنتيجة اللاحقة. وما يترتب عن هذه الخاصية ثانياً هو اعتبار السبب في حد ذاته قوة(171). والسؤال المطروح هو ما مصدر هذه القوة والضرورة المزعومة؟ هل تملك الموضوعات الخارجية مثل هذه القوة؟ وهل يوجد انطباع معين يحدث هذه العلاقة المفترضة؟

ليست هذه القوة مشتقة من كيفية من كيفيات الأجسام سواء الأولية منها أو الثانوية، وما نجده هو علاقات التجاور والتتابع بينها، لكن هذه العلاقات ليست كافية لتفسير السببية. موقف "هيوم" من ذلك هو أن الضرورة مفترضة عن طريق العقل بواسطة الخيال فقط، وذلك نتيجة التعود على أساس: إما أنّ كل حدث يتكرر يتبع بانتظام بنفس الحدث، أي كلما تكرر السبب تكررت النتيجة؛ أو على أساس عام قائم على الحتمية مفاده لكل حاضر ماضٍ، ويملك مستقبلاً. يرفض "هيوم" حقيقة هذا المبدأ الأخير مبرهناً على ذلك من خلال أسس مختلفة تؤكد أن العلاقة السببية ليست ضرورية. إن العلاقة الضرورية، يبرهن "هيوم"، هي التي لا نتصور رفضها، والمعروفة لنا من المرة الأولى، وبدون أي تكرار للتجربة، مثلاً ما تتميز به القضايا الرياضية، فالقضيتان: 3+3 و3×2 لا نستطيع أن نرفض أنهما متساويتان، وبدون مساعدة تكرار هذه التجربة نعرف هذا التساوي. لكن السببية كعلاقة بين شيئين لا ندركها إلا عند تكرار التجربة(172). ونقيض أي سبب أو نتيجة ممكن التصور. إن عدم قدرتنا على معرفة النتائج أو الأسباب بدون تجربة واختبار وتكرار لتلك التجربة هي الدليل على أن السببية ليست مبدأً ضرورياً. فعندما ننظر

171 - Calkins.M.W,The., The persistent problems of Philosophy,op.cit,PP: 154.
172 - Colkins.M.W,The, Ibid.,PP: 156.

إلى "كرة البيليارد" متحركة في خط مستقيم باتجاه الأخرى، نفترض مسبقاً حركة قد تحدث في الكرة الثانية نتيجة اصطدامها بها لأننا تعودنا على ذلك من خلال مشاهداتنا المتكررة لهذه الحادثة. لكن ألا يمكننا تصور أن تعود الكرة الأولى إلى الخلف أو تقفز فوق الكرة الأخرى؟ على أي أساس نفضل مثلا حركة في الكرة الثانية ولا نتصور الاحتمالات الأخرى. « كل استدلالاتنا القبلية لن تكون لها القدرة على توضيح أي أساس لهذا التفضيل»(173). وبهذا يؤكد "هيوم" أنه فقط من خلال التجربة المتكررة، يعرف الواحد منا مثلاً أن النار هي نتيجة الاحتكاك، تكرار التجربة، وتكرار الملاحظة فقط لحالات فردية، لكن لا تضمن الشمولية المتعلقة بالضرورة في العلاقة العلية. وربما يقول "هيوم" أننا نبرهن على أنّنا نملك فقط معتقداً ليس مطلق اليقين(174). هذه حجته الأولى في رفض الضرورة؛ أما حجته الثانية في رفض الضرورة المزعومة في العلاقة السببية فتقوم على أساس التمييز بين الأحداث. فكل حدث متميز تماماً، وبالتالي هو منفصل عن الآخر؛ وما دامت الأحداث منفصلة فلا يوجد إذن أي ارتباط ضروري « كل الأفكار المتمايزة منفصلة عن بعضها البعض، ولما كانت أفكار السبب والنتيجة متمايزة بوضوح، يكون من السهل بوضوح أن نتصور أي موضوع غير موجود في هذه اللحظة وموجود لاحقاً بدون أي ارتباط به.. »(175).أي أن العقل لا يمكنه أن يجد النتيجة في السبب المفترض، والنتيجة حسب الفحص الدقيق مختلفة عن السبب، وحركة الكرة الثانية غير متضمنة في الكرة الأولى. أما القوة التي ننسبها للسبب فيمكن طرحها بالشكل الآتي: هل يمكن أن تحتوي موضوعات العالم الخارجي على قوة في الأسباب لإحداث النتائج؟ وهل هناك قوة تأثير في الأجسام أصلاً؟

173 -Hume (David) ,An Enquiry Concerning Human Understanding, Sect: V., p:I op.cit. .p:45.
174 - Calkins.M.W,The persistent problems of Philosophy,op.cit,PP: 159.
175 -Hume (David), A Treatise concerning Human Nature,.BK .1.,Pt.3., §:3.,op.cit., p:79.

قبل التطرق إلى عرض وجه المشكلة الخاصة بالعالم الخارجي وموضوعاته ، التي لا تُفهم إلاّ من خلال هذه المبادئ، كما طرحها "هيوم"، ومواصلة لمناقشته فكرة السببية نحاول أن نستشف موقف "هيوم" من القوة التي ندّعي أنها موجودة في الأسباب، ونخص بذلك الأسباب المادية، لإحداث الآثار في الأجسام الأخرى. فكما رأينا، أن فكرة الضرورة التي يقرها الناس هي مجرد زعم نتيجة نزوع أحدثته العادة، وفكرة الضرورة ليست مؤسسة منطقياً بل مبررها سيكولوجي، فهي نتيجة عادة متأصلة، وترتبط بمفهوم القوة أو القدرة الموجودة في السبب لإحداث النتيجة. "هيوم" يعتقد أنه « لكي نعرف القوة أو فكرة الاقتران الضروري معرفة تامة علينا أن نفحص انطباعها، وعلينا أن نبحث عن الانطباع في جميع المصادر لكي يكون اكتشافنا أكثر يقيناً للانطباع [الذي اشتقت منه فكرة القوة»(176).

إنه لا يقرّ مطلقاً بقوة يمكن اكتشافها في الموضوع الخارجي، إذ لو كنا نعي حقيقة وجود مثل هذه القوة في موضوع فيزيائي تجاه موضوع آخر، فإنه ينبغي أن يكون لدينا انطباع عن هذه القوة، وذلك وفق المبدأ الأول من مبادئ الطبيعة البشرية والمتعلق بمنشأ الفكرة من الانطباع « لأن كل أفكارنا هي مجرد نسخ من انطباعاتنا، أو بعبارة أخرى..من المستحيل بالنسبة لنا أن نعتقد في أي شيء لم يسبق لنا أن شعرنا به بحواسنا الداخلية والخارجية»(177). يرفض "هيوم" إمكانية الملاحظة المباشرة لمثل هذه القوة من أجل أن يدحض ويبطل شرعية فكرتنا عن القوة التي ننسبها إلى السبب الخارجي(178)، وكل ما نلاحظه طبعاً بالعين هو التتابع، أي أن تتبع النتيجة السبب الذي نفترضه؛ كما يمكننا رؤية الكيفيات المختلفة سواء كانت أولية أو ثانوية، مثل شكل و نوع

176 -Hume (David) ,An Enquiry Concerning Human Understanding, Sect: VII.,pt:I., op.cit p:67.
177 -Hume (David) ,An Enquiry Concerning Human Understanding, Sect: VII.,pt:I., p:66.
178 - Calkins.M.W,The persistent problems of Philosophy,op.cit,PP: 164.

واتجاه ولون الموضوع السبب، لكننا لن نرى في كل الأحوال أي كيفية متميزة يمكننا أن نسميها كيفية القوة. نحن نشاهد عود الثقاب الذي يملك القوة على إشعال النار، ونرى المحرك الذي يملك قوة دفع السيارة. لكن لا نرى في الواقع تلك القوة التي نفترضها موجودة في عود الثقاب أو في محرك السيارة. نرى شكل العود ولونه وحجمه، لكن لا ندرك أي كيفية عدا كيفياته الأولية والثانوية يمكن لنا أن نسميها كيفية القوة(179) « عندما ننظر خارج أنفسنا، نحو الأشياء الخارجية، فإننا لن نكون قادرين إطلاقا على أن نكتشف من حالة واحدة قدرة أو اقتراناً ضرورياً، أي لا نجد كيفية تقرن النتيجة إلى السبب[...] وسنجد فقط أنّ الواحد يلي الآخر بالفعل...ذلك ما يظهر للحواس الخارجية»(180). "هيوم" يريد أن يبين أننا لا نعي بصورة مباشرة تلك القوة بواسطة الحواس الخارجية. لكن هذا لا يمنع من أن تكون تلك القوة في الموضوعات الخارجية أو الأجسام مبررة في وجودها عن طريق الاستدلال. يؤكد "هيوم" بعد ذلك على أنّه: « ليس ثمة أي جزء في المادة يكشف بخصائصه [كيفياته] الحسية عن قوة أو قدرة..إن القوة أو القدرة مخفية عنا تماماً»(181). إنّ الضرورة السببية تتعلق بالذات لا بالموضوع ، وبالتالي هي صفة للإدراكات لا صفة للأجسام . يقول "هيوم": « الضرورة شيء موجود في العقل لا في الأجسام»(182)، وأيضاً: « إنّ صفتي الضرورة والقوة هما صفتان للإدراك لا للموضوعات»(183)يصل هيوم إلى نتيجة مربكة للفلاسفة وهي أن فكرة الضرورة التي يقرها الناس هي مجرد زعم نتيجة نزوع أحدثته العادة، وفكرة الضرورة

179 - Calkins.M.W.loc.cit.
180 -Hume (David) ,An Enquiry Concerning Human Understanding . Sect: VII.,pt:I., p:67.
181 -Hume (David) ,An Enquiry Concerning Human Understanding .Ibid, Sect: VII.,pt:I., p:68.
182 -Hume (David), A Treatise concerning Human Nature,.BK .1.,Pt.3., §:XIV.,pp:165-166.
183 - Loc. cit.

ليست مؤسسة منطقياً بل مبررها سيكولوجي، فهي نتيجة عادة متأصلة، وترتبط بمفهوم القوة أو القدرة الموجودة في السبب لإحداث النتيجة.

بتطبيق هذه المبادئ والمعايير على قضايا الفلسفة ينتهي هيوم بالإتجاه التجريبي إلى نتيجة خطيرة، حيث يخلص في جملة أخيرة، تمثّل خاتمة كتابه"مبحث في الفهم البشري"، إلى عبارة شهيرة في الميتافيزيقا: « إذا تصفحنا مكتباتنا، مقتنعين بمبادئنا، فماذا يمكن أن تحدثه (هذه المبادئ)... ما أكثر ما نلقيه من كتب في النار؛ إذا تناولنا أي كتاب، كتاباً في اللاهوت، أو في الميتافيزيقا المدرسية مثلاً. هيّا نسأل؛ هل يحوي استدلالاً مجرداً يتعلق بالكم والعدد؟ لا. هل يحوي استدلالاً تجريبياً يتعلق بأمور الواقع، والوجود المحسوس؟ لا. اقذفه إذن في النّار. لأنّه لا يحوي سوى السفسطة والوهم. »(184).

يريد "هيوم" أن يقول كخلاصة لموقفه: لا علّية، ولا جوهر، ولا ذات؛ (وبالأحرى لا ميتافيزيقا). عالمنا الخاص بالمعرفة ليس عالماً بالمرّة؛ إنّه فقط تجميع لظواهر منفصلة ومتمايزة وليس هيكلاً من أجزاء متفاعلة؛ هو مجموعة، لكنّه ليس نظاماً؛ عناصر متعدّدة، لكنّها ليست كلّية؛ أعضاء كثيرة لكنّها لا تمثل وحدة عضوية؛ تنظيمه عن طريق قسر المخيلة، وليس عن طريق ضرورة العقل(185)

إذن، انتهى الإتجاه التجريبي ، انطلاقا من المبادئ التي انطلق منها ممثلوه، إلى نتائج شكية وضعت مسار الفلسفة أمام تحدّ جديد يتطلب البحث عن نقطة انطلاق جديدة، وهذا ما كان

184 - . Hume (David) ,An Enquiry Concerning Human Understanding . The open court publishing company, chicago.Illinois.1958. Sect: XII. Part II p:184.

185 - Hibben.J.G. The Philosophy of Lightenment. London: Longmans Green & CO. 1910.P:97.

مـع الفيلسـوف الألمـاني " إمانويـل كـانط" وتأسـيس اتجـاه جديـد سيسـتفيد ممـا قدّمـه الاتجـاهين السابقين. ويحاول أن يتجاوز ما كان مفرطاً فيه.

المحاضرة الرابعة عشر.

الإتجاه النقدي– كانط–

تأثر الفيلسوف الألماني **كانط**(1724–1804) بـ"وولف" و"ليبنتز"، إذ أقرّ بمبدأ العلّة الكافية ، أي وجود علة سامية في الكون، كما قال بها ليبنتز. كما تأثر بفلاسفة الإنجليز أمثال "هيوم" وأعجب بحرية التفكير التي نادوا بها، ومن أهم الأفكار التي أخذها عنهم فكرة ضرورة أن العقل يجب أن يقاوم ميله الطبيعي الذي يدفعه بهذا الميل إلى بناء أنساق شامخة ميتافيزيقية، ويدفعه إلى التفكير المجرد و البعيد عن الواقع. تأثر "كانط" بموقف التجريبية الإنجليزية، أولاً بموقف "لوك" العدائي من كل أنواع الميتافيزيقا اليونانية، و ثانياً، بـ"هيوم" في إنكاره الميتافيزيقا إجمالاً. والعلاقة التي تربط "كانط" بـ"هيوم"، ربّما تختصرها العبارة الشهيرة التي وردت على لسان "كانط" في كتابه "مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة" (***Prolegomena to Any Future Metaphysics***)1783 : « لقد أيقظني "هيوم" من سباتي الدوغماتي»[186]، و العبارة التي وردت في عمله الهام "نقد العقل الخالص"(***Critique of Pure Reason***)1781: « كنت ملهماً بفضل هذا الشك الهيومي»[187]، ومن المعروف أن "كانط"، قبل قراءته للأعمال الشكية لـ"هيوم"، كان يفترض بدون تمحيص، أنّ من الممكن أنّنا نملك معرفة قبلية فيما يتعلق بوقائع التجربة، لكن بعد قراءتها أدرك أنّ إمكانية مثل هذه المعرفة هي إشكالية جداً وبحاجة إلى تبرير[188]، وعلى الرغم من أنّه لا يخفي تذمّره من الدوغماتيين والشكّاك على حدّ سواء، فهو يقول: « ومن ثمّ فإنّنا

---

186 - " ***awaked me from my dogmatic slumber***", Kant. Prolegomena to Any Future Metaphysics. In Calkins.M.W,The persistent problems of Philosophy,.*op.cit*. p:211.

187 - " ***was inspired by this Humian doubt***". Kant. Critique of Pure Reason., In Calkins.M.W,The persistent problems of Philosophy,.*op.cit*. p:211.

188 - Bruce Anne , Knowledge of the external world,.Routledge London and New –York.,1991.,. P :61.